رحلة الى حلب والشام (١)

« في سنة ١١٥٠ هـ — ١٧٣٧ م »

— ١ —

نشرنا في مجلد السنة الماضية ص ٤٨١ مقالاً بعنوان (الكراس الشارد) وصفنا فيه ذلك الكراس ومضامينه وصفاً يلذ لمتتبع تاريخ سورية لاسيما معرفة أطوار سكانها الاجتماعية منذ مائتي سنة . وقد سألنا قراء مجلتنا عما اذا كان عندهم نبأ من امر الرحلة التي شرد منها ذلك الكراس . فلم يفجأنا الا كتاب من الصديق الأبرّ العلامة احمد باشا تيمور يقول فيه : ان كراسنا الذي وصفناه هو من رحلة كبيرة للشيخ احمد ابن صالح الادهمي الطرابلسي المتوفى (سنة ١١٥٩ هـ ١٧٤٦ م) وقد سمى رحلته هذه (تحفة الأدب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب) فنشرنا الكتاب الذي جاءنا من العلامة المشار اليه في مجلد هذه السنة ص ٢٢٦ وعلقنا عليه . ثم كتبنا اليه ان يرسل الينا الرحلة نفسها لنقتبس من فوائدها الاجتماعية على نمط مافعلنا في كراسها الشارد . فلم يهتم علامتنا ان بعث بالرحلة المخطوطة الينا فاذا هي كما وصف في كتابه . ولما تصفحناها رأينا فيها أخباراً عن حلب ودمشق جديرة بالنقل . وإعجاب اهل العلم والفضل .

خلاصة مامرّ من مضامين (الكراس الشارد) ان المؤلف سافر من القطر المصري الى وطنه الاصلي طرابلس الشام وقد جرت له في طريقه اليها وفي المدن البحرية التي عرّج عليها — امور وصفناها ولخصناها الى ان استقر في طرابلس بين أهله وخلانه . ونبتدئ الآن بتلخيص أخبار رحلته من طرابلس الى حلب ثم الى دمشق :

قال المؤلف جرى في بعض مجالس الانس ذكر التفاضل بين حلب ودمشق « وانه قد وقع بين أهلها خلاف وارتياب . من قديم الزمان وسالف الاحقاب » . وان كل

(١) هذه الرحلة تتمة لمقالة (الكراس الشارد) المنشورة في مجلد السنة الماضية ص ٤٨١ والاخبار الموفة هنا سلسلة متصلة الحلقات بالاخبار التي لخصناها من ذلك الكراس اذ الكل من كتاب واحد ولمؤلف واحد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فريق يفضل بلده . فقال اللقيمي اسعد [١] لا بد من الرحلة اليهما للفصل في هذا الامر فوافقوه على ذلك و برحوا طرابلس في ١١ محرم سنة ١١٥٠ ه وكان الزمان ربيعاً وقصدوا اولاً « حلب الشهباء ذات المرأى الوسيم . والمنظر البهج المقفي له بالتقديم » واول ما صادفوا حين خروجهم من طرابلس المزار المشهور باسم (الشيخ البداوي) فزاروه كما هي عادة العلماء في ذلك الزمان فان زيارات الأضرحة المشهورة من جملة الاسباب التي تحملهم على السفر وشد الرحال مع ورود النص في النهي عن ذلك . والبداوي مازال الى اليوم يُقصد للزيارة وعليه مسجد و بجانبه بركة فيها سمك مشهور بنسبته الى ذلك المزار . ثم وصلوا الى (مقام الهمام الشهيد) ولعله يعني به المزار المشهور المسمى اليوم (الشيخ بدر) ولا أذكر من هو هذا الشيخ بدر ولماذا وصفه المؤلف بالشهيد وهو ما زال يقصد من القرى التي في جواره للتبرك ولتفريج الكروب وطلب الحاجات وصاحب هذا المزار ذكره الشيخ النابلسي مذ ورد طرابلس في رحلته التي سماها (الحقيقة والمجاز) وذلك سنة ١١٠٥ ه فقال : « ثم سرنا اي (من طرطوس) الى ان وصلنا الى مكان فيه قبة يقال انه دُفن فيها شهيد البحر وهو رجل من الاولياء المشهورين في ذلك المكان وحول قبته أشجار و بساتين وبعض بيوت » انتهى . ومعظم سكان القرى من حواليه هم من طائفة النصيرية . ثم وصلوا الى (القنيطرة) ولا أذكر ان هناك قرية باسم (القنيطرة) فلعلها المنيطرة بالميم وتكون هي التي تسمى اليوم (المنطار) وهي قرية مشهورة كان يملكها المرحوم الحاج عبد الله غازي من أعيان أسكلة طرابلس الشام . ثم نزلوا طرطوس فذمها وذم أهلها ووصف براغيثها فقال :

(وخليل يقول لما رآني ابداً أوسع البراغيث ذمّا)
(ان في اسم البرغوث برّاً وغوثاً قلت لكن الاسم غير المسمى)

والمؤلف مع رفقته لم يسافروا الى حلب من طريق حماه وانما أخذوا ساحل البحر عن شمالهم الى اللاذقية ومنها سلكوا الوعر الى ادلب لحلب . وصلوا (جبلة) فلم يروا من أهلها حفاوة فلجأوا الى جامع ابراهيم بن ادهم المشهور ثم دخلوا اللاذقية ضيوفاً على

(١) راجع ترجمته في المرادي (ج ٤ ص ١٥٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(احمد الزيادي) بتشديد الياء كما يظهر من قوله فيه :

(خل الفنـاء بزينب وسعاد واقصد مرابع احمد الزياد)

ووصف ما كان من حفاوة هذا الكريم المضياف بهم كما وصف غلمانه وحسنهم وجمالهم من ذلك قوله في الواحد منهم :

(فكأن مالكه المفضل احمد غذاه لين الانس للعواد)

ولعل صوابه (للوراد) ويفهم من قوله هذا ومن أوصاف أخرى لغلمان الخدمة لدى من كانوا يضيفونه ان شراء المماليك واستخدامهم كان فاشياً بكثرة في مدن الشام . ثم وصف حماماً دخله في اللاذقية بأشنع الاوصاف وقال انه سأل عن اسمه فقيل له (انه حمام العواني او العشور) كذا وصوابه حمام العُشّر كما أخبرني بعض اهل اللاذقية وموقعه في البازار . ومما وصف به الحمام ان صابونه منتن الروايح واستطرد من بشاعة هذا الحمام الى ذكر ما قاله الشعراء في الحمامات مدحاً وقدحاً وافتتح ذلك بقوله هو في حمام اللاذقية :

(وحمام حوى ما ليس يحصى من الأوساخ والدنس القديم)

(ينادي من اتى يبغي قراه لك البشرى قدمت على الجحيم)

وممن زاره في اللاذقية (الشيخ عبد الفتاح) وقد وصفه بالتقوى والصلاح ويوجد الى اليوم عائلة وجيهة بهذا الاسم في اللاذقية . وصلوا في جامع (الوزير سليمان باشا) ودعاهم للضيافة (احمد بن بديع) وقال ان من المدعوين اليها (حضرة الشيخ عبد الرحمن افندي مفتي اللاذقية) ولعل عبد الرحمن افندي هذا هو جد جد كاتب هذه السطور فقد ترجم له المرادي في تاريخه (سلك الدرر) (ج ٢ ص ٣٠٣) وقال ان عبد الرحمن افندي المغربي (استفام مفتياً في طرابلس واللاذقية مقدار خمس واربعين سنة وكانت وفاته سنة احدى وتسعين ومائة والف) اي بعد زمن هذه الرحلة باربعين سنة ثم قال عنه مانصه : « فجرينا معه في الكلام والمذاكرة وبسطنا له بساط المفاكهة والمحاضرة . وهو لا يطوي عن مرامنا كشحاً . ولا يضرب عن الذي طلبناه صفحاً . بل كلما فتحنا له مسألة فقهية . سلك طريق المطارحة بالكلية . فعلمنا بقرائن الحال . انه رجل في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غاية الكمال . فعندها اعتقدنا محبته . وحققنا مع حضرة الوالد صحبته » . يريد ان عبدالرحمن افندي كان من أصحاب والد المؤلف واسمه صالح افندي الادهمي الطرابلسي وكان فاضلاً شاعراً . ثم غادروا اللاذقية الى حلب فمروا بقرية (البهلولية) وهي ملك (احمد الزيادي) الذي كانوا ضيوفه في اللاذقية ومروا بعقبة السكون (او السفكون) ووادي القرشية ووصف وعورة هاتين العقبتين وصعوبة السير فيهما قال « وفي اثناء ذلك الضيق . لاح لنا بيت على قارعة الطريق . فتقدمنا لطلب البيان . فاذا نحن بشيخ وثلاثة نسوان . فسألنا عن الناس الأجواد . فقيل لنا انهم من اهالي الأكراد . واحدى الثلاثة رعبوبة ذات جمال . وغادة قد تسربلت برداء الدلال . فتقدم اليهن رفيقنا (ابن بدران) . وقال هل ماء الى ابن السبيل الوارد العطشان . وصار يطيل النظر اليها . و يلقي من أسرار لواحظه عليها . فاندفعت تسقي الوراد . وطفقت تطفي ببرودة كلامها حرارة الاكباد » . و (ابن بدران) هذا كان امرءً فيه دعابة وحسن نادرة فكانوا يستخرجون من نكته ولطائفه مايطربهم و يزيل كربهم و يخفف عناءهم قال : « ومرت علينا ونحن في ذلك المكان . قافلة كبيرة من الركبان . فسألنا الى اين أيها الاخوان . فقالوا لنا من اداب الى زيارة حضرة السلطان . فقلنا لهم مصحوبين بالسلامة ولا زالت العناية لكم ترعى . ولا تنسونا معاشر الاخوان من صالح الدعاء » والسلطان هذا هو السلطان ابراهيم بن أدهم دفين (جبلة) على ساحل البحر بين اللاذقية وطرابلس . قصدته هذه القافلة من اهل ادلب مكابدين عناء السفر وقطع تلك العقاب الشاقة لاجل زيارته مع ان ذلك مما نهى عنه الشارع بصراحة لاتشوبها جمجمة . وهذه القافلة تدل على مبلغ انحطاط التربية الدينية في نفوس الناس يومئذ مما كان مقدمة لثورة محمد بن عبد الوهاب و باعثاً على رفع صوته وانكاره على اهل ذلك الزمان مخالفة آداب السنة وطريقة السلف . ثم وصلوا الى (جسر الشغر) فذمها المؤلف وقدح في مروءة أهلها . حتى بلغوا ادلب فلم يجدوا محلاً لنزولهم ثم وقعوا على مكان عظيم البناء رحب الفناء وسألوا عن صاحبه فخرج اليهم شاب لطيف حسن المحيا فرحب بهم وأخبرهم ان المكان (مطبخة صابون) اي موضع طبخه وصنعه ويسمى ايضاً (مصبنة) مفعلة من الصابون . وصنعة الصابون مازالت الى اليوم من اكبر موارد الرزق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ادلب . ثم سألوا الشاب عن مالك (المطبخة) فقال هو (احمد افندي ابن طه افندي) نقيب أشراف حلب ثم هيأ لهم في المطبخة مكاناً لنزولهم فنزلوا واذا رجل شائب فظ دهمهم وجعل يسب الشاب بكلام بذيء ونال منهم ايضاً ، فسألوا الشاب عنه وعن خبره فقال ان اسمه (علي النداف) وان والده (اي والد الشاب) كان في هذه المصبنة بيّات (كذا فلعل البيات هو رئيس عمالها او حارسها الذي يبيت فيها) ولما مات والد الشاب جعل هذا الشيخ الفظ يعارضه ويريد رفع يده عن المصبنة قال : « و يرقبني اخوة صغار . وثلاث أخوات أبكار » ثم قال والداهية الدهماء « انه مُرق لافندينا نصف قنطار من الصابون وانا خايف من افندينا ان يدري » و يعني بقوله (افندينا) مالك المصبنة نقيب أشراف حلب . فبشروه انهم اذا وصلوا حلب واجتمعوا بنقيب الاشراف قصوا عليه الخبر وسألوه تفريج الكرب عن الشاب . وهكذا وقع فانهم ذكروا للنقيب حادثة (علي النداف) وما ارتكبه من قلة الانصاف فخجل وعزله من بيانة المصبنة . ثم تفسحوا في شوارع ادلب وأسواقها فرأوا (في أهلها حسن بشاشة ونوع من الانس واللطافة) لكنهم لما أرادوا الصلاة وجدوا المساجد مقفلة الأبواب حتى ظفروا أخيراً بمدرسة مفتحة الأبواب وأرادوا زيارة « الكاملي الكبير (؟) وهو الذي اتفق على زهده الصغير والكبير » فلم يهتدوا الى داره ! ثم استزارهم المفتي فزاروه للتبرك ودخلوا « الى مكان صغير وجدوا فيه من الأشراف جمّاً كثير » ثم ان المفتي جعل يشنف آذانهم باخبار بلاد الروم (يعني القسطنطينية) وطلبوا منه زيارة والده . لاجل الشرب من رايق موارده « فأخبرنا انه نائم . وهو في بحر من الولاية عائم » ولا ريب ان المفتي ووالده هما من أُسرة (الكيّال) الشهيرة في ادلب وحلب فان هذه الأُسرة الكريمة هي المعروفة بالأسرار . والعوم في بحار الأنوار . ثم انهم خرجوا من دار المفتي ولم يروا والده وذهبوا مع الشيخ عمر ؟ فدخلوا الى جامع صغير وتركهم الشيخ عمر وغاب قدر نصف ساعة ثم عاد ومعه (هيطلية) فأكلوا منها بحسب الامكان . و (الهيطلية) حلوى تصنع من النشا وتحلّى بالسكر المذاب . ثم برحوا ادلب الى نبيش فخان طومان وقبل ان يصلوا الى حلب رأوا من بعد قباباً وقيل لهم انها قباب (سيدي عبدالله الانصاري) فقرأوا لروحه ما تيسر من القرآن ثم دخلوا حلب من باب المقام ونزلوا في دار السيد حسن الطبلاوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لانه كان دعاهم الى النزول في داره وهم في طرابلس ففارقهم من خان طومان لإعداد الدار والنزُل . وقال في وصف داره « وأدخلنا الى فسيح دار قد زينت بانواع المحاسن والفخار . طوانها بالذهب مفموس . وله بريق كبريق الشموس » . و (طوان) كلمة دخيلة وكنا نحسبها حديثة العهد واذا المؤلف يستعملها منذ مائتي سنة وهي من اللغة التركية ويراد بها اليوم سقف الغرفة المغشى بالجبس او الخشب المنقوش بأنواع الأصباغ والزخرف . ثم ذكر توارد أهل حلب للسلام عليه وفي ثاني يوم خرجوا لزيارة نبي الله زكريا فصادف المؤلف في الطريق صديقاً له من بلده طرابلس وكان مجاوراً معه في الأزهر ويظهر من وصفه لصديقه هذا انه من أفاضل الرجال وعظمائهم واسمه (السيد محمد افندي الطرابلسي) وكان له منصب في حلب وعمل في حكومتها . صادفه في الطريق مصادفة فسلم عليه تسليم الصديق المشتاق فلم يعبأ به (محمد افندي) لانه لم يعرفه « وسلم باطراف البنان . وألوى عن المعرفة العنان . فلما رأيت هذه الأحوال . قلت وعند تغير الحال . للامراء انتقال » فيفهم من هذا ان منصب محمد افندي كان إدارياً لاعلمياً وان كان هو من العلماء فأعرض عنه المؤلف وقطع الحديث معه لكن صديقه لم يلبث ان أدرك حقيقة الأمر فأسرع اليه واعتذر وألح في ان يأخذه الى داره فلم يقبل . ثم وصلوا الى الجامع وكان يوم جمعة فوصف المؤلف الجامع وضريح سيدنا زكريا بكلام نخم مسجع الى ان قال مخاطباً له : « ها نحن ببابك وقوف . وانت بمكارم الأخلاق موصوف . فمدنا بمددك . وانظمنا في سلك خدمك . فاننا قطعنا بحبك المهامه والقفار . وفلونا الاولاد والديار » . مع ان المؤلف ورفقته انما قصدوا حلب والشام لأجل إعمال المقارنة والمفاضلة بينهما لا لأجل طلب المدد من زكريا (صلعم) ومع هذا فقد قال المؤلف : « فسرى علينا من فيضه الايناس . . . وبدت لنا منه أمارات . هي على القبول إشارات » . فما أطيب قلب ذلك النبي الحليم . ثم استأذن المؤلف النبي في الإنصراف قائلاً : « ثم طلبنا الاذن والدستور . بالإنصراف عن رحبه المعمور . فخرجت الإشارة . بالإنصراف وقبول الزيارة » . وكان المؤلف كلما زار ضريحاً عقد محاورة بينه وبين صاحب الضريح ضمنها كلمات : أنوار وإشارات . وبشارات . وبوارق وقبول وإمداد وإذن . ونفحات : ولمحات . في نظير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك وكنا نقرأ مثله في رحلات الشيخ عبد الغني النابلسي وغيره من علماء ذلك الزمان الذي اشتد فيه حلك الظلام . ثم خرجوا من الجامع وطافوا أسواق حلب قال « فحصل لنا فيها غاية الانشراح . لما رأيناه من وجوه أهلها الصباح » الخ الخ . ثم عادوا الى دارهم وفي صبيحة ثاني يوم زارهم (السيد محمد افندي الطرابلسي) فماد الى الاعتذار للمؤلف عما وقع منه وأخذا يذكران ايام المجاورة في مصر ويتلهفان على تلك الايام التي قضياها ثمه وانشد المؤلف في المعنى أشعاراً في التشوق الى مصر ومغانيها . ودعاهم السيد محمد الى داره وعينوا له وقتاً فذهبوا فيه قال « حتى وصلنا الى شارع بكنوس مرشوش . و بانواع البلاط مفروش » . ووصف الدار والخدمة والغلمان واستقبال صاحب الدار لهم كل ذلك بأساليب مسجعة . و بانواع البديع مرصعة . وهي تدور حول المبالغة في الوصف والاطراء في التقريظ والمدح الى ان جرت مناسبة لتفسير آية وهي (أغرقوا فأدخلوا ناراً) فتذاكروا فيها وكان مدار البحث على ان فاء التعقيب في (فأدخلوا) هل تدل على عذاب القبر او لا تدل ؟ فذكروا ماقاله الفناري والسعد ثم ذكر مؤلف الرحلة ما كتبه هو في هذه المسألة . ولما أرادوا الانصراف لم يأذن لهم (محمد افندي) حتى أخذ منهم وعداً لضيافة يقيمها لهم في بستانه لكن جاء رسوله في الوقت المعين يعتذر لهم « بانه قد حصل لسيده شغل شاغل . عن الورود الى منهلكم الذي هو أعذب المناهل . وفي المحكمة جمعية . لا يمكنه التخلف عنها بالكلية » . ثم عين لهم اليوم الثاني . وذكر المؤلف في جملة الذين زاروه « الشاب اللطيف . نجل الكيلاني السيد عبد اللطيف » . ثم وصفه نثراً وشعراً فقال :

(عبد اللطيف له أنس ومعرفة قدفاق أقرانه باللطف والادب)
(قد جمعت فيه أوصاف مهذبة كأنما صاغه ربي من الذهب)

وكان السيد عبداللطيف هذا يكثر من زيارتهم وأخيراً دعاهم الى داره « لاقامة الجمعية . المسماة عندهم بالليلة الوردية . فانها عندهم من أعظم الليال . لجمعها لسائر أنواع الجمال .... فأجبنا دعوته . وأخذنا عليه المواثيق والعهود . ان لا يحضر آلة لهو كطنبور وعود . وقلنا يكفينا لتحريك الشجن . طيب النغمة بالصوت الحسن » . قال ولما جاء الوقت المعين وغربت الشمس « توجهنا مع الاخوان . ونحن لا ندري حقيقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا الشان » . يعني انهم لا يدرون كيف تكون « حقيقة تلك الليلة الوردية . المشهورة بين أدباء حلب المحمية » . الى ان وصلوا الدار « وعلى بابهـا قناديل معلقة .... وقادوا بين أيدينا الشموع ... وأدخلونا الى إيوان . كأنه قطعة من الجنان . منقدة فيه من الشموع احد عشر . ومن المصابيح مالا يكاد يحصر . قد فرش ذلك المكان من الورد بنحو قنطار . وحفت جوانبه بسائر أنواع الأزهار . كأن الورد وجه خودرداح . وقد وضع على جوانبه نرجس وأقاح . وعلقت بسائر أطراف المكان صوادح البلابل ... وأحدقت بتلك الأزهار زمر ... فيهم كل منشـد يحرك الجلود . مع ظبـاء هذبت بألطف طباعها .... من كل فتى الخ الخ » ثم وصف المؤلف احدهؤلاء الفتيان باللطف ورقة الحـديث وانه كان يدير القهوة على الحاضرين . فقال « وطفق ذلك الغزال . يدير القهوة على الرجال . وكلما سكنت أصوات الألحان . حركت البلابل بثغر يدها لواعج الأشجان . وناثر الورد على من حضر . كما ينثر الغمام رشاش المطر » فالليلة الوردية عند اهالي حلب . عبارة عن ليلة أنس وطرب . تقام في فصل الربيع يستكثرون فيها من ضروب الأزاهير . لا سيما الورد فانهم يجلبون منه القناطير . و يظهر من تكرار المؤلف لذكر قهوة البن انها كانت لذاك الزمان شائعة الاستعمال في مدن الشام مع قرب العهد بظهورها . ثم قال المؤلف انهم في آخر الليل طووا بساط الغناء والألحان وانتقلوا الى مطارحة كلمات المزاح والمطايبة . ثم مدت موائد الطعام ثم انصرفوا بسلام قائلين : « قد أخذنا من حسن مرأينا العجب . وقطعنا بلطافة ابناء حلب» . يريد (بقطعنا) جزمنا وحققنا واعتقدنا . وفي مجلسهم في ثاني يوم عرض ذكر (هبنقة) الأحمق المشهور فسرد المؤلف خبره وحماقاته . وسئل عن الفرق بين (الايغال والإمعان) في فن البديع ففرق بينهما وذكر الشواهد عليهما . ثم ذهبوا في الوقت المعين الى بستان السيد محمد افندي الطرابلسي فوصف البستان بأوصاف (كتاب ليلة وليلة) منها قوله : « يخترقه ماء كأنما صب من دره . او ترقرق من عبره » . ثم سرد أسماء الأزهار والطيور التي في البستان متفننا في وصفها وتشبيهها الى ان قال في صفة البستان « أصايله متوافقة مع أسحاره . وشمسه لا ترى الا من خلال أشجاره . وقد أحدق به ماء يتدفق . وهو عن مثل المسك يتفتق » . ولا نعلم كيف كان الماء كثيراً في ذلك البستان وعهدنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بحلب انها قليلة المياه . ثم ذكر ان (محمد افندي) تلقاهم وأجلسهم (على جانب ذلك النهر الرائق) ثم خاضوا في الشعر والأدب وأنشد أحدهم قول (البديعي): (افدى الذي دخل الحمام متزراً) .. البيتين . وتذاكروا في سبب دق الطاسات والنحاس عند خسوف القمر فذكر المؤلف ان السبب هو نصير الدين الطوسي لما أعلم هولاكو بالخسوف ونام هولاكو فخرض الطوسي الناس على دق الطاسات كي يخاف الحوت و يلفظ القمر من فيه وهكذا انتبه هولاكو وشاهد بعينه صحة قول الفيلسوف . ثم روى حكاية (العمري[1]) شيخ أدباء دمشق في ذلك العصر . وخلاصتها : ان العمري كان في (بيت قهوة) بدمشق وممه صديق فدنا منهما غلام حسن الوجه واذا شخص هيولي الشكل غليظ الطبع حال بينهما وبين الغلام فقال صديق العمري (هذا خسوف عسى الله ان يؤذن بزواله) ولمحوا رأس ذلك الشخص فاذا هو أقرع كأنه طاسة فقال العمري الآن تم التخييل واخذ القلم وكتب على البديهة :

(حبس البدر أقرعٌ عن عيوني ... فغدا الطرف خاسئاً مطروفا)
(فتناولت رأسه لصفاع ... بنعالي وصنت عنه الكفوفا)
(قال لي اللائمون كف فما دي ... ت دعوني واقصروا التعنيفا)
(عادة البدر يخجلي ليلة الخـ ... ـسف بدق الطساس دقاً عنيفا)
(وتراءيت رأسه طاسةً فجعلـ ... ـت الصفع دقاً فكان عذراً لطيفا)

ثم انتقل المؤلف الى حديث آخر من أحاديث الأدب والشعر وكان في مجلسهم (السيد احمد الحياني) وقد أثنى عليه المؤلف ثناء عظيماً وذكر من مزاياه حسن الصوت وقال فيه انه «سيد لو لم يكن على رأسه من القبول أعلام . لما اختاره طراز الوزراء الكرام امام» . فيفهم من هذا ان الحياني كان إماماً يصلي بوزير حلب في ذلك العهد . وان وزيرها هو (سليمان باشا) لان المؤلف ذكره وأثنى عليه ثناء طويلاً وقال ان هذا الوزير سأل عن آية (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً) فان مفهومها انهن ان لم يردن التحصن فلمواليهن ان يكرهوهن على البغاء . وقد أجاب

(١) راجع ترجمته في سلك الدرر (جزء ٢ ص ١٥١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المؤلف عن هذا بما وسعه المقام . وبينا هو كذلك اذ سمعوا ضوضاء شديدة وكانوا كلما أرسلوا احداً يأتي لهم بخبر هذه الجلبة تسلل لواذا ولم يرجع اليهم ثم انتدب السيد احمد الحياني وعاد ولم يفصح عن الخبر وانما كان يجمجم وفي آخر الامر قال ان (بشيراً) عبد المؤلف وقع في الغدير وكاد يغرق ثم خرج وفر هارباً كأنه خاف من سيده ثم أحضر مكشوف الرأس حافي القدمين واخبر انه أراد الوضوء فزلت قدمه فسقط في الغدير ثم خرج منه الى حيث يريد تبديل ثيابه لكنه لم يكد يمر بباب حلب حتى أحدق به الناس وتقدم اليه رجل فصفعه على عنقه ولطمه على فمه وقال له « الى اين ايها العبد الآبق . هل انت زنديق او سارق ؟ » . فذكر لهم قصته فلم يصدقوه وجعلوا يضربونه ثم وضعوا في رجله قيداً من حديد حتى اسعفه الله بالسيد عبداللطيف فانه لما رآه عرفه وقال له « ما دهاك . ومن بشر هذا القلفجي رماك » . ولعل صوابه (الفلقجي) اي صاحب الفلق و يفهم ان للشرط يومئذ فلقة كانوا يضعونها في رجل من يريدون تعذيبه . وعبد اللطيف هذا هو في الغالب السيد عبد اللطيف الكيلاني الذي أقام لهم حفلة (الوردية) في داره كما سبق ولما عرف بقصة العبد امر بفك وثاقه وجاء به الى سيده الادهمي ضيف حلب وشفع الحاضرون بالعبد لديه فعفا عنه . وأنشدهم قصيدة السراج الوراق والشهاب محمود في عبديهما . ثم ذهبوا الى (الميلوية) وهي تكية درا ويش المولوية المشهورة في حلب لا سيما في هذه الايام وفي نسخة الرحلة يسمى المولوية هكذا (الحيلوية) ولا ريب ان الحاء محرفة عن الميم فصوابها (الميلوية) والميلوية هي(المولوية) كما ينطق بها أهل طرابلس الى اليوم . ومن جملة ماوصف به دار المولوية قوله « في وسطها بركة ماء كبيرة ... وصعدنا لمكان مزخرف بالوان الأطلية والشيد فيه الغرف الرفيعة ذات التزيين . والمفاصير التي تليق بالحور العين . وقد أطلت شبابيكه على تلك الارجاء والجداول المتدفقة وأشجار السرو » . واستقبلهم رئيس التكية (داده الشيخ ابو بكر الدرويش حسين) و (داده) كلمة تركية مازالت تطلق على شيوخ المولوية الى اليوم . ثم وصف الداده المذكور ومما قال فيه « وحسبك بامرئ لم تر له ذاماً ولا ثانياً . ولا ذاكراً يعلم ان له في كرم الاخلاق ثانيا » ثم صلوا في الجامع والسياق يقتضي انه جامع التكية وعادوا من الصلاة الى مكان في التكية مطل على الشهباء و بساتينها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقضوا بالرئاسة لهذا المكان على سائر مافي حلب من المتنزهات وناموا في التكية ورجعوا في الصباح الى دارهم وتذاكروا في بيت المعري :

(و بوشع رد يوحا بعض يوم وانت متى سفرت رددت يوحا)

و (يوحا) معناها الشمس ولكن هل هي بالياء المثناة او بالباء الموحدة وقد اختلفوا في ذلك وروي عن المعري وهو في بغداد ان بعض فضلائها احتج عليه بكتاب الالفاظ ليعقوب فأجابه المعري « هذه نسخ محدثة غيرها شيوخكم ولكن أخرجوا ما في دار العلم من النسخ العتيقة » فأخرجوها فوجدوا (يوحا) مقيدة كما قال . وشعر المعري من قبيل النوع البديعي المسمى (التلميح) وقد أفاض القوم في ذكر الشواهد عليه من أقوال الشعراء . وجرى ذكر مقامات الحريري فاقترح بعض الحاضرين على المؤلف ان يحذو حذوه في وضع مقامة قال « فقلت حكى الفكر الفائر . عما خلج في الضمائر . الخ » وهذا يدل على انه ارتجل مقامته في المجلس وبلغت المقامة نحو ثلاث صفحات ضمنها مسألة نحوية وبعد إتمام المقامة عاد المؤلف ففسر الكلمات اللغوية التي وردت فيها ثم انهم ذهبوا الى ضيافة (السيد امين شارخ) وقال انه كان يلازمهم (شاب ظريف . يسمى عبد اللطيف) حسن الصوت رخيمه متفنن في الإنشاد فكان يطربهم من وقت الى آخر . ثم دعاهم الى داره (السيد محمد افندي الطرابلسي) فذهبوا اليه فلم يجدوه وانما وجدوا ابنه الذي ناب عنه واعتذر بان قد جاء اباه (نجاب من حضرة الملاّ) يدعوه اليه فتعلل واعتذر عن الذهاب فلم يقبل عذره ثم اكل القوم وقضوا ليلتهم هناك و كتب المؤلف كتاباً نظماً ونثراً وتركه لصاحب الدار وغادرها الى داره . ثم وصفوا للمؤلف (بيت عبد السلام افندي) ومحاسنه العجيبة فذهبوا اليه فرأوا رب الدار واقفاً في الباب فأخبروه خبر ضيف حلب الكريم فرحب بهم ودخل أمامهم ثم وصف المؤلف تلك الدار وصفاً مسهباً من ذلك قوله « واقع في صدر تلك الدار ايوان . أخبرت أرباب المعارف انه على طراز ايوان كسرى انو شروان . وتجاهه بركة عشرون مضروبة بمثلها فوق تلك البركة مقعد صغير عديم النظير ويسبح في البركة أصناف من الطيور . وحول البركة جنينات . كأنها اختلست من الجنات » . ثم قال ان صاحب الدار أعرض عن حديثهم اولاً ثم ما زالوا به حتى مال اليهم واستدرك ما فرط منه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وامر بالتطلي والشربات) ولام اخوانه الذين لم يعرفوه بمقام الضيف قال «لما قضينا من المكان حظنا الموفور . أردنا القيام فخلف وجاب لنا القمقم والبخور . فتطيبنا وتبخرنا . وعلى صنيع معروفه شكرنا » . وقول المؤلف (جاب لنا) يدل على مبلغ تساهله في استعمال الكلام الدارج على ألسنة العامة . ثم وصفوا للمؤلف جامعاً ليس في الشهباء جامع يحاكيه وهو جامع « صاحب الجاه والدستور . ومدبر امور الجمهور . الحاج عثمان باشا [1] ... فهو الذي بحسن هذا الجامع انفرد . ولم يسبقه الى شكله احد » ثم دعا له بما يشعر انه مازال حياً . ومما وصف به ذلك الجامع قوله « لاحت لنا منارته لتجلي . كأنها عروس بانواع الزينة لتحلى . قد حاكت بعلوها الاهرام الكبير ... توجت بتاج أخضر ... وفوق التاج . هلال محلى بالذهب الوهاج . اذا ألقت الشمس شعاعها عليه تكاد تراه من مسيرة يوم ... نزلنا الى وسطه فرأينا بسائر جهاته مقاصير يرسم الطلبة ولهم تعيين وفي وسطه بركة . عشر في عشر . تجري ليلاً ونهاراً » . هذا ما قاله المؤلف في صفة الجامع وقد تكرر في وصفه بساتين حلب ودورها ذكر جريان المياه المتدفقة فيها وعهدنا بحلب انها محرومة نعمة المياه فما هو تأويل كلامه يا ترى ؟ وقال المؤلف انهم (لما خرجوا من الجامع رأوا بجنبه بيتاً [2] لانواع المحاسن جامع) فسرهم حسن منظره وعلموا ان بانيه هو باني الجامع (يعني الحاج عثمان باشا) وقد استدلوا بحسن البناية على علو همة الباني وتشوفوا للوقوف على حقيقته وعزموا على العودة اليه للفرجة عليه . ثم ان (حضرة مصطفى اغا ابن هيكل) دعاهم الى القلعة وان يصلوا صلاة الجمعة فيها و يزوروا مكان ابراهيم الخليل فوعدوه بذلك وزاروا (الميلوية) مرة ثانية (بقصد التفرج على مافيها من الخلوات فرأوا خلوة مزخرفة طيقانها وأبوابها) وعلموا ان ساكنها « رئيس اللطفا الدرويش ابراهيم ... وانه من الكتاب . اولي الفصاحة والظرافة الانجاب ... فلما دخلت خلوته الانيقة التي لحسنها كأنها حديقة

---

(١) عثمان باشا هذا هو المشهور بالدركي الحلبي راجع ترجمته ووصف جامعه وكيفية بنائه له في المرادي (جزء ٣ ص ١٥١) . (٢) لعل هذا البيت هو المطبخ المسمى بالعمارة كما يفهم من المرادي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تأملته فعرفته الخ » . واذا هو صديقه فاعتذر الدرويش اليه بعدم علمه خبر قدومه ثم ذهبوا الى القلعة فوصف علوها وخندقها ومصاطبها التي بين الابواب فاستراحوا ثمه . ثم صعدوا فقابلهم رب الضيافة الى وسط الدار فجلسوا وقد ابتلت ثيابهم من العرق وتغدوا وبعده أديرت القهوة والشربات والبخور والطيب وصلوا في جامع القلعة وخطبته معرفة بالانغام ثم طلعوا الى سور القلعة وصحبوا معهم القهوة وبعض الحلويات وأشرفوا على حلب قال « فضربناها بمساحة الافهام . فرأيناها تساوي مصر ذات الاهرام » ثم مدح حلب وانها مباركة من زمن ابراهيم الخليل ومدح أهلها وانهم أمراء الفصاحة من عهد أمراء بني حمدان وكان معهم في مشاهدة القلعة « رجل له شغف بجمع الدرهم والدينار اسمه امين . وهو بالبذل ضنين » . فارتجل المؤلف بيتين تعريضاً به وبحرصه على المال ثم نزلوا فزاروا المكان الذي كان يحلب فيه ابراهيم بقرته الشهباء ! فدعوا وتبركوا ثم خرجوا من القلعة الى دارهم وهناك جرت مذاكرات ادبية نضرب عن ذكرها صفحاً ومنها قول جميل :

(بثينة تزري بالغزالة في الضحى كأن اباها الظبي او أمها الما)

قال المؤلف « ولهذا البيت حكاية لطيفة أوردتها في شرحي على القصيدة المقربة » ويعني بالقصيدة المقربة قصيدة الشيخ (المقري) التي مطلعها :

(سبحان من قسم الحظ ـ ـ وظ فلا عتاب ولا ملامه)

واسم شرحه عليها (الكواكب السنية شرح القصيدة المقربة) قال المرادي انه شرح حسن مفيد يدل على فضل المؤلف .

وكان الجلوس يسألونه عن أبيات شعرية فيها غموض من حيث اللغة او المعنى فكان يجيبهم عليها ويكشف الغموض عنها ويورد ما قاله العلماء فيها عدا أبيات شعرية كانت تعرض عليه فيشطرها تارة ويخمسها طوراً . ثم ختم المؤلف رحلته بذكر أشهر مشاهير حلب الذين اجتمع بهم فجعلهم فريقين : الفريق الاول رجال العلم والأدب والفريق الثاني رجال المناصب والرتب وهم الذين أصبحوا يسمون (الافندية) او (العلماء الرسميين) أحياناً وقد اتى على وصف الفريقين وتراجم أحوالهم ولمز بعضهم معرضاً او مصرحاً بعيوبه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« الفريق الاول »

(١) الشيخ قاسم الشهير بالبكرجي صاحب البديعية المشهورة (راجع ترجمته في المرادي ج٤ ص١٠) .

(٢) الشيخ قاسم بن الشيخ محمد النجار (جزء٤ ص١٣) .

(٣) السيد علي العطار سبط الكيلاني (جزء ٣ ص ٢٠١) .

(٤) الشيخ طه الجبريني ابن مهنا (جزء٢ ص ٢١٩) .

(٥) الشيخ علي الدباغ وقد لازه بالطمع وقال فيه (له معرفة باسماء الكتب بلا خلاف . حتى يتراءى بانه لمعرفته بها صحاف) . (ترجمته في جزء٣ ص٢٣٣) .

(٦) الشيخ عبد الكريم الشراباتي (جزء ٣ ص ٦٣) .

(٧) الشيخ محمد الزمار (جزء ٤ ص ١٢٣) .

« الفريق الثاني »

قال « واما من اجتمعت عليه من أبناء حلب . من أرباب البايات والرتب . فنبذة أخيار . قد رفلوا بثياب العز والفخار » . فمنهم :

(١) السيد يوسف افندي الدمشقي الملقب بالشهباء . وقال المؤلف انه تردد بين ان يعده في الفريق الاول (العلماء) او الثاني (أرباب البايات) ولذلك جعله بين الفريقين ثم لازه قائلاً « اما وصفه باثبات أدلة . فلسان الحال ينادي بانه حجة المعتزلة . . . قد طعن في العمر وأسن . ولم يخلع عن المجون من رأسه الرسن » . ثم ذكر انه كلما أراد مناظرته والبحث معه « ضرب سداً عن هذا المرام . بفضول الهزل والكلام » . ولكن المرادي ترجم السيد يوسف هذا في جزء ٤ ص ٢٦١ ترجمة حسنة ونقل للمحبي في ذيل نفحته مدحاً جميلاً فيه .

(٢) احمد افندي طه زاده نقيب الاشراف .

(٣) السيد محمد افندي ابو الجود الكواكبي النقيب السابق .

(٤) ابن عمه احمد افندي ابن المرحوم ابو السعود افندي الكواكبي . ويظهر من وصفه له انه كان في ذلك العهد شاباً طالباً فقد قال فيه « أفرغ الله ذاته في قالب الحسن فكان نوراً مصوراً . وأطلع غصن كماله في دوحة الحسن يانعاً منوراً . له وجه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يخجل البدر عند شروقه . ورقة كلام يشربها سمع الحاضر فتسري كنشوة الخمر في عروقه ..... قد تعلق بذيل الأدب . وأطلق عنان الطلب ... فأحرز قصبات السبق في ذلك المضمار . وزاحم مناكب المجتهدين . فساوى من طلب في ذلك أعواماً وسنين » .

(٥) خاتمة الصالحين الابرار الشيخ احمد البنان . صاحب العلوم الالهية والاتقان) . ووصفه بالولاية وانه هو صاحب الوقت في تلك الديار . قال « وسرت الى دكانه تجاه الخسرفية (الخسروية) .... ثم باثناء المذاكرة والملاطفة . أخبرني ببعض امور على طريق المكاشفة » . عندها تيقن المؤلف (انه من أولياء الله الصالحين) . ولم يترجم المرادي لواحد من هؤلاء الاربعة .

وذكر المؤلف انه طاف على الأولياء الذين في اللحود فعدّ منهم (سيدي غوث) و (سيدي عبدالله الذهبي) و (الشيخ ابوبكر) وبعد مضي احد عشر يوماً في حلب عزم على الرجوع الى بلده طرابلس الشام فيمكث اياماً ثم يرحل الى (دمشق الشام) . وعاد في الحافرة التي جاء منها : خان طومان فقرية القناطر فإدلب ونزلوا فيها في (مصبنة النداف) ومعهم كتاب بعزله عن بيانة المصبنة من صاحبها (احمد افندي بن طه افندي) نقيب أشراف حلب فأرسلوا الكتاب الى نقيب أشراف إدلب فعزله بالطبع ثم زاروا في إدلب (الكامل الكبير) ولعله والد مفتيها الذي لم يتح لهم رؤيته في مرورهم بها اولاً وقلنا انه ربما كان من أسرة الكيال التي كادت تحتكر الولاية في تلك الديار وهاتيك الأعصار . وقد قال في صفته « وجدناه كعبة الهداية . غارق في بحور الولاية ... نفعنا الله ببركاته . ومتع أهل إدلب بطول حياته » . و برحوا ادلب فنشبوا في أوعار الطرق ومضايق الجبال وعقابها قال « ولما قطعنا صعابها .... اخذت دابتي الخشوع . فهوت الى الارض فنزلت ناوياً السجود والركوع . فرُضّ كتفي وجنبي . واحتسبت مصابي عند ربي » . حقاً ان كل مسافر يخترق الطريق اليوم على السيارة بين حلب وبيروت يجدر به ان يذكر المؤلف الأدهمي ويقرأ الفاتحة عن روحه الطيبة . ثم وصلوا الى (جسر الشغر) فصلوا الظهر في جامعها (واذا رجل من الشافعية يقرأ للناس تفسير الخطيب) فدلف اليهم وعرض الضيافة عليهم فاعتذروا ثم وصلوا الى اللاذقية فنزلوا عند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(احمد جلبي الزيادي) وعنهم ابن مفتي اللاذقية الشيخ عبد الرحمن افندي الذي مر ذكره قال « فوجدناه في الدار . رجلاً من أولياء الله الأخيار ... وأجازنا باذكار ... وقال : ان وقعتم في ضيق فنادوني . فانكم ان شاء الله في كل وقت تجدوني ... » !!

ثم بلغوا جبلة فطرطوس ثم طرابلس الشام فدعاهم الى الزاوية (الحاج علي المكاري) فأضافهم في (بستان الحور) يومين .. وأسرة المكاري من أشهر الأسر الطرابلسية كانت أسرة علم ثم تجارة وما زالت الى اليوم معروفة في طرابلس .. قال وأضافهم (الحاج ابراهيم بن علي باشه) وكلمة (باشه) تكتب أحياناً (بشه) ونراها كثيراً في الصكوك والوثائق الطرابلسية القديمة وهي لقب تكريم لكنها دون الألقاب الاخرى وفهمت من بعض المعاجم التركية ان (بشه) و (باشا) كلتاهما تركيتا الاصل لكن الاولى تكتب بباء موحدة النقطة ومعناها (السيد والمولى) والثانية تكتب بباء ذات ثلاث نقط ومعناها (الوالي والوزير) وهي التي مازالت حية شائعة بيننا . اما الاولى فقط ماتت .. ثم ان المؤلف ذكر ان صديقه (الشيخ مصطفى القيمي) أقام في داره مريضاً سبعة عشر يوماً ثم غادر الدار من دون ان يعلمه ناقماً زارياً فعتب المؤلف عليه وانه لم يراع حقوق الصحبة وسمع كلام أعدائه فيه . وهكذا انتهت رحلة المؤلف الى حلب ثم غادر طرابلس الى (دمشق الشام) وسنأتي على وصف رحلته اليها في جزء آخر من هذه المجلة .

المعرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net